

تفسير ابن كثير

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ^ج وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ

يقول تعالى أمرا عبده ، فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة ، بالاستعانة بالصبر والصلاة ،

كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية : استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على

الفرائض ، والصلاة . فأما الصبر فقليل : إنه الصيام ، نص عليه مجاهد . [قال القرطبي وغيره

: ولهذا سمي رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث] . وقال سفيان الثوري ، عن أبي

إسحاق ، عن جري بن كليب ، عن رجل من بني سليم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم

قال : الصوم نصف الصبر . وقيل : المراد بالصبر الكف عن المعاصي ؛ ولهذا قرنه بأداء

العبادات وأعلاها : فعل الصلاة . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن حمزة

بن إسماعيل ، حدثنا إسحاق بن سليمان ، عن أبي سنان ، عن عمر بن الخطاب - رضي

الله عنه - قال : الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم

الله . [قال] وروي عن الحسن البصري نحو قول عمر . وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن

مالك بن دينار ، عن سعيد بن جبير ، قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب فيه ،

واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد ، لا يرى منه إلا الصبر . وقال أبو العالية في قوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة) على مرضاة الله ، واعلموا أنها من طاعة الله . وأما قوله : (والصلاة) فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر ، كما قال تعالى : (اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) الآية [العنكبوت : 45] . وقال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبد الله الدؤلي ، قال : قال عبد العزيز أخو حذيفة ، قال حذيفة ، يعني ابن اليمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى . ورواه أبو داود [عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتي] . وقد رواه ابن جرير ، من حديث ابن جريج ، عن عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبيد بن أبي قدامة ، عن عبد العزيز بن اليمان ، عن حذيفة ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . [ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة ، ويقال : أخي حذيفة مرسلًا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة :

حدثنا سهل بن عثمان أبو مسعود العسكري ، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قال :
قال عكرمة بن عمار : قال محمد بن عبد الله الدؤلي : قال عبد العزيز : قال حذيفة :
رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي ، وكان
إذا حزه أمر صلى . وحدثنا عبيد الله بن معاذ ، حدثنا أبي ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق
سمع حارثة بن مضرب سمع عليا يقول : لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله
صلى الله عليه وسلم يصلي ويدعو حتى أصبح [قال ابن جرير : وروي عنه ، عليه الصلاة
والسلام ، أنه مر بأبي هريرة ، وهو منبطح على بطنه ، فقال له : اشكب درد] قال : نعم
[قال : قم فصل فإن الصلاة شفاء] ومعناه : أيوجعك بطنك ؟ قال : نعم [قال ابن
جرير : وقد حدثنا محمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيم ، قالا حدثنا ابن عليه ، حدثنا
عينة بن عبد الرحمن ، عن أبيه : أن ابن عباس نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر ،
فاسترجع ، ثم تنحى عن الطريق ، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام
يمشي إلى راحلته وهو يقول : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين)
وقال سنيد ، عن حجاج ، عن ابن جرير : (واستعينوا بالصبر والصلاة) قال : إنهما

معونتان على رحمة الله .والضمير في قوله : (وإنها) عائد إلى الصلاة ، نص عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير .ويحتمل أن يكون عائدا على ما يدل عليه الكلام ، وهو الوصية بذلك ، كقوله تعالى في قصة قارون : (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) [القصص : 80] وقال تعالى : (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) [فصلت : 34 ، 35] أي : وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا (وما يلقاها) أي : يؤتاها ويلهمها (إلا ذو حظ عظيم) وعلى كل تقدير ، فقوله تعالى : (وإنها لكبيرة) أي : مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين . قال ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعني المصدقين بما أنزل الله . وقال مجاهد : المؤمنون حقا . وقال أبو العالية : إلا على الخاشعين الخائفين ، وقال مقاتل بن حيان : إلا على الخاشعين يعني به المتواضعين . وقال الضحاك : (وإنها لكبيرة) قال : إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطواته ، المصدقين بوعدته ووعيدته . وهذا يشبه ما جاء في الحديث : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه . وقال ابن جرير :

معنى الآية : واستعينوا أيها الأحرار من أهل الكتاب ، بحبس أنفسكم على طاعة الله
وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر ، المقربة من رضا الله ، العظيمة إقامتها إلا
على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته . هكذا قال ، والظاهر أن
الآية وإن كانت خطابا في سياق إنذار بني إسرائيل ، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل
التخصيص ، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم . والله أعلم .